الذبابة

للكاتبة الانجليزية كاترين منسفيلد

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

قال مستر وودفيلد فى صوت يشبه الصفير :

« إنك هنا ستكمل جميع أسباب الراحة والرفاهة . . . »

وكان مستر وودفيلد جالساً على كرسى كبير من النوع المريح من الجلد الأخضر ، إلى جوار مكتب صديقه المدير ، وأطل مستر وودفيلد ، وهو يوجه هذه الكلمات إلى صديقه ، من كرسيه كما يطل الطفل من عربته ، وبهذه الجملة ختم حديثه معه ، وقد آن موعد انصرافه ، ولكنه لم يكن راغباً فى الانصراف ، فهو منذ أن استقال من عمله ، أو بعبارة أخرى منذ أن أضرب عن العمل ، اعتادت زوجه وبناته أن يحبسنه فى البيت طوال أيام الأسبوع ما عدا يوم الثلاثاء ، ففى يوم الثلاثاء يسمح له بارتداء ملابسه واصلاح هندامه والخروج إلى طرقات المدينة ، حيث يقضى النهار كله أنى شاء ، ولكن لم يكن فى مقدور زوجه وبناته أن يتخيلن ما يعمله فى أثناء غيبته عن البيت ، على أنهن كن يفترضن أنه يزور بعض أصدقائه فيضايقهم بأحاديثه . . وقد يكون هذا الافتراض مطابقاً للواقع

والحق أننا لنتشبث بمسراتنا الأخيرة كما تتشبث الشجرة بأوراقها الأخيرة أيضاً ، وهكذا جلس الشيخ وودفيلد على كرسيه المريح يدخن السيجار الذى قدمه إليه صديقه ، وينظر نظرة ، يكاد يبدو فيها أثر الشره ، الى ذلك الصديق الذى يدور فوق كرسى مكتبه معتدل القامة أحمر الوجه ، فهو وإن يكن أكبر من ضيفه سناً بخمس سنوات إلا أنه لا يزال قوياً ولا يزال قابضاً على الدفة ، وإن الانسان لينتعش بالنظر إليه . ثم قال الشيخ بصوته الصفيرى فى شىء من اللباقة والاعجاب :

« نعم ، يشهد الحق أن هذا المكان هانئ مريح ! . . . . »

فقال المدير ، وهو يفتح صفحات جريدة فينشيال تيمس بمقطع الورق :

« نعم ، إنه مريح بالقدر الكافى »

والواقع أن الرجل كان فخوراً بغرفة مكتبه ، وكان يحب أن يعجب بها الناس وبخاصة صديقه العجوز الشيخ وودفيلد . ولقد كان من أشد بواعث شعور الرضى العميق الثابت فى نفس المدير أن يجلس معتدلا وسط هذه الغرفة متعرضاً تعرضاً تاماً لنظر صديقه الشيخ الضعيف القابع فى ذلك الكرسى الكبير الذى يكاد يخفيه عن العيون

وقال المدير موضحاً كما وضح فى الأسابيع الماضية التى لا يذكر عددها :

« لقد أعددت هذه الغرفة أخيراً اعدادا جديدا ، فهذه سجادة جديدة » ، وأشار إلى السجادة الحمراء الزاهية ذات الرسوم والدوائر البيضاء الكبيرة ثم قال :

« وأثاث جديد »

وأشار برأسه إلى المكتبة الكبيرة والمائدة ذات الأرجل الملتوية ذات اللون العسلى ، ثم قال :

« ومدافىء كهربائية »

ولوح بيده مبتهجاً نحو الخمس الأنابيب الشفافة المضيئة باللون الأحمر اللطيف داخل جهاز من النحاس ذى رفرف كالمظلة فوق هذه الأنابيب

ولكن الرجل لم يوجه نظر وروديفيلد إلى الصورة الفوتوغرافية المعلقة فوق المكتب والتى تمثل فتى عابس الوجه ، واقفاً فى لباسه العسكرى ، وسط واحدة من تلك الحدائق الخيالية التى يمدها المصورون فى دورهم ، وراءه سحب متكاثفة هى كذلك من صنع الخيال . ولم تكن هذه الصورة جديدة فى مكانها هذا ، فهى معلقة فيه منذ أكثر من ست سنوات

وقال وروديفيلد العجوز :

« كان عندى ما أردت أن أقوله لك »

وهنا ظللت عينيه غشاوة الذكرى ثم قال :

« والآن لا أكاد أذكر ما كنت أريد أن أقول فما هو يا ترى ؟ لقد كان فى رأسى عند ما غادرت بيتى صباح اليوم »

وبدأت يداه ترتجفان وبدت بقع حمراء على لحيته فرثا له صاحبه وأشفق عليه وقال فى نفسه : إن هذا الصديق المسكين قد بذل أقصى جهده فى الحديث ، ثم غمز له بعينه وقال مازحاً :

« سأخبرك أنا بهذا الأمر . فان عندى هنا قطرة من شىء ينفعك قبل أن تخرج إلى سقيع الطريق مرة أخرى . وهو مادة لطيفة لن تضر طفلاً صغيراً »

وأخذ مفتاحاً من حلقة مفاتيحه وفتح دولاباً تحت مكتبه وأخرج منه زجاجة مضلعة داكنة اللون وقال :

« هذا هو الدواء ، ولقد قال لى الرجل الذى أخذته منه ، فى لهجة التوكيد ، إنه جاء به من مخازن قصر وندسور »

فلم يقع نظر الشيخ وروديفيلد على الزجاجة حتى فغر فاه ؛ ولم يكن ليدهش أشد مما دهش لو أن صاحبه أخرج بدل الزجاجة أرنباً

وقال فى لهجته الصفيرية :

« أليس ذلك هو الوسكى ؟ »

فأدار صاحبه الزجاجة وأراه رمز مصنعها فقد كانت بالفعل زجاجة وسكى

وقال وروديفيلد وهو يحدق النظر فى صاحبه :

« أتعرف أنهم فى البيت لا يسمحون لى بتذوق الوسكى ؟ »

وبدا عليه كأنه يكاد يصيح من شدة الفرح .

وقال صاحبه رافعاً صوته :

« آه ... هذا هو الموضوع الذى نعرف فيه أكثر قليلاً من السيدات »

ومال نحو قدحين كانا على المائدة مع زجاجة الماء فصب فى كل منهما كمية وافية من الوسكى وقال :

« اشرب هذا فسيفيدك جداً ، ولا تمزجه بشىء من الماء ، فمن الخسارة إفساد مثل هذه المادة المقدسة . آه ! »

ثم جرع كأسه وتناول منديله فمسح شاربيه مسرعاً ، ونظر من طرف عينيه إلى وروديفيلد الذى كان يداعب قدحه بشفتيه

وشرب وروديفيلد القدح دفعة واحدة ، وبقى لحظة صامتاً ، ثم قال فى صوت خافت :

« إنه شديد الرائحة »

ولكن الخمر دفأته وأعادت قوة التذكر إلى رأسه البارد العجوز — فتذكر وقال وهو يرفع نفسه ليقف على قدميه :

« هاك ما أردت أن أقول ، فقد ظننت أنك تود أن تعرف أن البنات قد ذهبن إلى البلجيك فى الأسبوع الماضى ليلقين نظرة على قبر ريجى المسكين ولقد تصادف أن رأيت كذلك قبر ابنك ويبدو لى أن القبرين متجاوران »

ووقف الشيخ وودبفيلد عن الكلام ولكن صاحبه لم يجبه ، غير أن رمشة جفنيه أنبأت بأنه قد سمع

وقال الشيخ فى صوته الرفيع :

« وقد ابتهجت البنات بما رأين من العناية بالمكان ، ولو كانت هذه القبور فى انجلترا لما كانت بأحسن حالا مما هى عليه هناك . وما أحسبك قد ذهبت إلى ذلك المكان ؟ »

فأجاب الرجل : « لا . لا . »

وهو لأسباب عديدة مختلفة لم يسافر إلى البلجيك

فقال وودبفيلد فى صوت مرتجف :

« إن مساحة المكان تبلغ عدة أميال وكلها نظيفة منسقة كالحديقة ، والأزهار تنمو على جميع القبور . وهناك طريق واسعة جميلة »

وقد ظهر من نبرات صوت الشيخ مبلغ حبه للطريق الجميلة الواسعة ، وسكت الشيخ وودبفيلد مرة أخرى ثم ابتهج ابتهاجا غريبا وقال فى صفيره المعتاد :

« أتدرى كم تقاضى الفندق البنات ثمنا لعلبة المربى ؟ لقد تقاضاهن عشرة فرنكات ! وإنى لأسمى ذلك سرقة . ولقد كانت العلبة صغيرة كما تقول جرترود ، لا يزيد حجمها على حجم نصف الريال الانجليزى ، ولم تكن قد أخذت منها أكثر من ملعقة صغيرة عندما تقاضوها العشرة الفرنكات . لذلك أخذت جرترود العلبة وجاءت بها معها لتلقى عليهم درسا . وهذا حق أيضا ، فان هؤلاء القوم يتاجرون على حساب عواطفنا . فهم يظنون أننا مادمنا مضطرين لأن نذهب إلى هناك لنلقى نظرة على قبور أعزائنا فقد وجب أن ندفع كل ما يطلب منا دفعه ، هذا هو تفكيرهم »

واتجه الشيخ صوب الباب

وقال المدير فى صوت مرتفع وإن لم تكن فى رأسه أية فكرة عما هو هذا الحق :

« نعم هذا حق ! نعم هذا حق ! »

وخرج الرجل من وراء مكتبه وتبع صاحبه فى خطواته البطيئة حتى أوصله إلى الباب . وخرج وودبفيلد فغاب عن الأنظار

ووقف صاحب المحل لحظة طويلة ينظر إلى غير شىء . بينما « ساعى » المكتب الأشيب الشعر يرقبه من مكانه فى احتراس شديد ، يخرج رأسه بحذر ثم يعيده كالكلب الذى يتوقع أن يأخذه صاحبه معه فى مرحلة طويلة . ولم يلبث سيده أن قال له :

« لا أريد أن أقابل أحداً لمدة نصف ساعة . . هل فهمت ؟ لا أريد أن أقابل أحداً مطلقاً »

« ليكن ما تريد يا سيدى »

وأقفل الباب ، واجتازت الخطوات الثابتة الثقيلة السجادة الزاهية مرة أخرى ، وارتمى الجسم السمين فى الكرسى اللولبى ، ومال الرجل إلى الأمام مخبئاً وجهه بين كفيه . لقد أراد ولقد اعتزم بل لقد أعد عدته للبكاء . . .

لقد كانت الصدمة قاسية فظيعة عندما فاجأه الشيخ وودبفيلد بملاحظته على قبر ابنه . فلقد كان الأمر تماماً كما لو أن الأرض قد فتحت ورأى ابنه فى قبره وبنات وودبفيلد ينظرن إليه . لأن المسألة كلها كانت غريبة فانه وإن كان قد مضى ست سنوات على موت ابنه ، إلا أنه لم يتصوره إلا راقداً فى لباسه العسكرى لم يصبه تغير ولا تشوه ، وإن هى إلا نومة الأبد الهادئة

وقال المدير منتحباً : « ابنى ! »

ولكن عينيه لم تذرفا الدمع بعد ، وقد كان فى الماضى ، فى الأشهر الأولى وحتى فى السنوات الأولى بعد موت الفتى ، يكفى أن يذكر ابنه ليستولى عليه من الحزن مالا يمكن أن يخفف من قسوته إلا نوبة حارة من البكاء المر ، وكان يقول إذ ذاك ، لكل إنسان : إن الوقت لا يستطيع أن يبدل من حاله تلك ، وإن غيره من الرجال قد يشفون من أحزانهم ، وقد ينسون الخسارة التى أصابتهم ويتعزون عنها . أما هو فلن يكون ذلك شأنه أبداً ، ولن يبدل الزمن من حاله بأهناً منها ، وهل كان من الميسور أن تبدل حاله ؟ لقد كان ابنه ولداً وحيداً ، ومنذ ولادته شرع أبوه يؤسس له هذا العمل الذى يقوم عليه ، ولم يكن لعمله هذا من معنى إن لم يكن مقصوداً منه أن يبقى للصبى الصغير يقوم عليه بعد أبيه ؛ بل إن حياة الرجل نفسها لم يعد لها من معنى آخر غير ذلك ، فهو إنما يحيا من أجل ولده الصغير ، وأى شىء على وجه الأرض كان يحمله على أن يستعيد نفسه ، وينكر ذاته ، ويواصل العمل طوال هذه السنوات ، لولا الأمل الماثل أمامه دائماً فى أن يرى ابنه يدرج فى نعليه ، ويرتدى لباسه ، ويواصل العمل من حيث يتركه هو ؟

وكان هـذا الأمل على وشك أن يتحقق ؛ فلقد قضى الفتى سنة قبل الحرب ، فى مكتب أبيه ، يتدرب على الأعمال الأولية . فكان الأب وابنه يذهبان معاً كل صباح إلى المكتب ، وبعد انتهاء العمل يعودان كذلك معاً فى قطار واحد ، وما أكثر ما تلقى الأب من التهنئات بصفته والداً لهذا الولد الناجح ، ولا عجب فى ذلك ؛ فلقد كان الغلام مبدعاً حقاً فى إتقان عمله ، ولم تعلق به فى أية ناحية من نواحيه شائبة الغرور الذى يتلف خلق من كان فى مثل مركزه ؛ بل لقد كان على العكس من ذلك ، غلاماً سمحاً مشرقاً ، طبيعى الخلق ، يخاطب كل إنسان برأيه الصريح فيه ، فى عينيه نظرة الطفولة البريئة ، وقد تعود أن يجيب على ما يطلب منه بكلمات الطاعة المؤدبة

ولكن كل ذلك قد انتهى وتلاشى كأنه لم يكن من قبل ؛ فقد جاء اليوم الذى حمل فيه الخادم « مامى » إلى سيده الرسالة البرقية التى هدمت المحل كله على رأسه ، وقد استهلت تلك الرسالة بهذه الكلمات : « يؤلمنا أشد الألم أن نبلغك ... » وترك الرجل مكتبه ، مكسور القلب ، محطم الحياة

كان ذلك منذ ست سنوات مضت . . . نعم منذ ست سنوات .. فما أسرع أن مر الزمن ! وكان ما حدث قد حدث فى الأمس القريب ... وأزاح الرجل كفيه عن وجهه وقد علته الحيرة فقد خيل إليه أن فى نفسه شيئاً غير سليم ، وقد أعوزه الشعور الذى أراد أن يشعر به . فاعتزم أن يقف وينظر الى صورة ابنه الفوتوغرافية . ولكنها لم تكن إحدى الصور التى يحبها ، فنظرة الغلام فيها لم تكن طبيعية بل لقد كانت نظرة جامدة ، بل كانت نظرة عابسة متجهمة ، وهى نظرة لم يرها أحد قط من قبل على وجه الصبى

فى هذه اللحظة رأى الرجل أن ذبابة قد سقطت فى الدواة الكبيرة وأنها تجاهد فى ضعف ولكن جهاد المستيئس لتخليص نفسها من الشرك الذى وقعت فيه وكأنما كانت أرجلها المتخبطة تنادى : العون ! العون ! ولكن جوانب الدواة كانت مبللة زلقة فسقطت الذبابة مرة أخرى فى الحبر وشرعت تسبح فوق سطحه . فتناول المدير قلمه والتقط الذبابة فوضعها فوق ورق النشاف . فبقيت نصف ثانية جامدة لا تتحرك فوق البقعة السوداء التى ارتسمت حولها . ثم تحركت رجلاها الأماميتان وارتكزت على الأرض ، فجرت جسمها المبلل جراً

حتى رفعته قليلا ، وعندئذ بدأت المهمة الكبرى مهمة إزالة الحبر عن جناحيها ، فكانت رجلاها ترتفعان وتهبطان محتكتين بالجناحين احتكاك حجر المسن بالمنجل ، ثم وقفت هذه العملية لحظة ، وبدت الذبابة واقفة على طرفى رجليها الأماميتين ، وقد اجتهدت فى نشر أحد جناحيها ثم نشرت الجناح الآخر ، وقد نجحت فى محاولتها ، وجلست أشبه ماتكون بالقطيطة محاولة تنظيف وجهها . وليتصور الانسان منظر الرجلين الأماميتين تحتكان إحداهما بالأخرى فى خفة وابتهاج . فقد انتهى الخطر الفظيع ، وقد نجت الذبابة من الموت واستعدت مرة أخرى لمواجهة الحياة

ولكن فى هذه اللحظة بدت لصاحب المحل فكرة طارئة ، فغمس قلمه مرة أخرى فى الحبر ووضع قبضته الغليظة على ورق النشاف ، ولم تكد الذبابة تحرك جناحيها محاولة الطيران حتى غمرتها نقطة حبر كبيرة ثقيلة . فماذا عساها أن تفعل فى هذا الخطر الجديد ؟ نعم ماذا عساها أن تفعل ! لقد بدا على المخلوقة التعيسة أنها قد ذهلت وأصابتها الحيرة واستولى عليها الخوف من الحركة جزعاً مما قد يدهمها بعد ذلك . ولكنها لم تلبث أن جرت نفسها الى الأمام وكأنما كانت تفعل ذلك فى شىء من البطء

وقال الرجل فى نفسه إن هذه الذبابة شيطان صغير جرىء ، وشعر باعجاب حقيقى بشجاعتها . فهذه هى الطريق التى يجب أن تعالج بها المشكلات هذا هو الروح القوى السليم . لا تقل أبداً « أموت » فما هى إلا مسألة . . . ولم يكن لدى المدير من الوقت ما يتسع لأكثر من إعادة غمس قلمه فى الحبر وسكبه مرة أخرى على الذبابة التى كانت قد نظفت جسمها مرة ثانية وقال فى نفسه : « وماذا أنت فاعلة فى هذه المرة ؟ » وتبع ذلك فترة انتظار موجعة ولكن صه . . فها هما الساقان الأماميتان تعودان الى الحركة ، وشعر الرجل بارتياح مفاجئ ، فانحنى على الذبابة وقال يخاطبها فى رقة ولطف : « أيتها المخلوقة الصغيرة المجتهدة . . . » وحاول فعلاً أن يساعدها بأنفاسه فى تجفيف نفسها ولكن على الرغم من ذلك كانت حركتها فى هذه المرة ضعيفة بطيئة ، وقرر المدير وهو يغمس قلمه فى الحبر مرة أخرى أن تكون هذه آخر مرة

ولقد كانت بالفعل آخر مرة ، فقد سقطت نقطة الحبر الأخيرة على ورق النشاف ، فرقدت الذبابة القذرة تحتها جامدة لا تتحرك ، وقد التصقت أرجلها الخلفية بجسمها ، أما الساقان الأماميتان فقد اختفتا عن النظر

فقال الرجل : « هلم ... استيقظى ! »

وحاول أن يثير بقلمه حركة الذبابة ، ولكن عبثاً — فلم تتحرك ولم يعد من الميسور أن تتحرك لقد ماتت الذبابة

فرفع الرجل الجثة على طرف مقطع الورق ، وألقى بها فى سلة المهملات . ولكنه فى هذه اللحظة أحس بشعور ساحق من التعاسة يستولى عليه عنيفاً حتى لقد تملكه خوف حقيق ، فهم من مكانه وضغط زر الجرس طالباً خادمه « ماسى »

فلما جاء الخادم قال له فى لهجة حادة :

« جئنى بورق نشاف جديد واخصه جيداً »

وبينما الخادم يسير عائداً فى خطواته الثقيلة أخذ المدير يسائل نفسه فى حيرة : فى أى شىء كان يفكر من قبل ؟ ماذا كان الموضوع الذى شغل رأسه ؟ لقد كان يفكر ... وتناول منديله من جيبه فدسه بين عنقه وياقته . . . فلقد نسى نسياناً تاماً فى أى شىء كان يفكر ...

عبد الحميد حمدى